

## دولة المرابطين

رغم ما انتهت إليه تجربة دولة الأدارسة من توفيق يقل كثيراً عما كان ينتظر لها ، ورغم ما بذلته القبائل المؤيدة لها من جهود في توحيد أكبر قسم من المغرب الأقصى تحت لواء دولة إسلامية قوية ، تقوم على مذهب السنة والجماعة ، فإن توفيقها السياسي كان قصير العمر ، نظراً لقلّة الخبرة السياسية التي أتاحت للكثيرين من قادتها من ناحية ، ثم لأن الظروف التاريخية غير المواتية وضعتها في موضع الصراع بين الفاطميين الإسماعيليين والمروانيين الأندلسيين السنيين . ومع ذلك فقد رأينا أن التوفيق الحضاري للأدارسة كان كبيراً جداً ، فقد ضمن لهم نسبهم الشريف مكانة عظيمة في قلوب الناس ، ثم إنهم داخلوا أهل المغرب وصامروهم وأصبحوا منهم وكان لهم أبعد الأثر في تعريب أهل المغرب ونشر اللغة العربية وعلوم الإسلام من منبر جامعة القرويين . وعندما اضطرتهم الظروف التي أحاطت بهم واضطرت بقاياهم إلى اللجوء إلى قلعة حجر النسر ، كان المغرب الأقصى قد وجد نفسه في العروبة والسنة والجماعة وأخذ يبني نفسه قُدماً .

وكانت تجربة الأدارسة كذلك درساً سياسياً باقى الأثر في المغرب ، فقد رأت قبائله كيف قامت في بلادهم دولة إسلامية منظمة الإدارة ، يقوم على رأسها إمام مطاع مرهوب الجانب من آل البيت وذوابة العروبة ، عزت به السنة والجماعة ، ويستقيم الإسلام الصحيح بجاهه ، وجاه القبائل البربرية المستعربة التي تؤيده وتتجلى في ظله فضائل العروبة . ويظهر بفضل ذلك كله فضل قبائل مغربية لم تكن قبل ذلك بذات شأن سياسي كبير في المغرب الأقصى مثل أوربة<sup>(١)</sup> وغمارة ودكالة وسدراتة ونفزة ومكناسة . وبعض هذه القبائل مصمودية ، وبعضها صنهاجية ، وبعضها الآخر زناتية .

---

(١) كان لأوربة قبل ذلك شأن كبير في المغرب الأوسط كما رأينا آنفاً .

كان نجاح هذه القبائل في إقامة دولة بنى إدريس ، حافزاً لزعماء قبائل أخرى ، على محاولة إقامة دول مماثلة لحسابها ليعزبها أمرها . وجدير بالذكر أن تنافس القبائل المغربية على السلطان والسيادة قوة محرّكة دائمة لتاريخ المغرب وأحداثه في كل عصوره .

وبعد نهاية الدور الأول من تاريخ الأدارسة ، وخروجهم من حوض نهر سبو وخروج فاس من أيديهم وانتقال بقياتهم إلى قلعة حجر النسر في شعاب جبال الريف ، استبد بالامر موسى بن أبى العافية مؤيداً بجاه الفاطميين . ولكن الأمر لم يستقر لموسى بن أبى العافية طويلاً ، لأنه لم يستطع إقامة النظام ، فلم تلبث وحدة القبائل التى أقامت دولة الأدارسة أن انفردت . وخلال العقود الأولى من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، عاد المغرب الأقصى إلى الفوضى ، وسيطرت عليه جماعات زناتية معظمهم من مغراوة وبنى يفرن ، وأخذت زندقة برغواطة تنشط من جديد .

وفى عصور سيادة الزناتية تسود الفوضى ويعانى الحضر من ثقل المغارم ، لأنهم لا يحميهم من عدوان البدو إلا دول الحضر أى البرانس التى تأخذ بناصرهم وتحمى المدن وأهلها وتعمرها بالمنشآت والمساجد ، وهى دور علم فى نفس الوقت .

حدث شىء من هذا بعد القضاء على آخر الأدارسة على يد مصالة بن حبوس الصنهاجى ، حامل لواء الدعوة الفاطمية فى المغربين الأوسط والأقصى ، سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ — ٩٢٦ م . وفشل موسى بن أبى العافية الذى أنابه مصالة بن حبوس عنه فى حكم منطقة فاس ، فعادت قبائل الزناتية إلى الاستبداد بالناس من جديد ، فكانت جماعات المغراويين واليفرنيين ترزع أمن الناس ، وتلزم من قدرت عليه بأداء المغرم فى نواحي مكناسة ورباط تازا فى الشمال ، إلى وادى أم الربيع فى الجنوب ، بما فى ذلك السهل الساحلى المسمى ريف تامسنا ، وامتد سلطانها إلى سهل دكالة فيما بين وادى أم الربيع ومجرى نهر تانسيفت ، بل

سيطرت بعض فروعهما على سهل السوس وبلاد تافيلالت وعاصمتها سجلماسة .

## صنهاجة الصحراء وتطلعها إلى التلخص

من سيادة الزناتيين - جدالة :

في ذلك الحين ، وبعد النصف الثاني من القرن الهجري الرابع / العاشر الميلادي كانت تعيش في أقصى جنوبي المغرب ، فيما يلي نهر درعة جنوباً وفي الصحراء التي تليها جنوباً ويسميتها البكري صحراء « تنسر » التي تمتد إلى حوض السنغال ، كانت تعيش مجموعة من القبائل الصنهاجية تسمى بصنهاجة الصحراء ، أهمها جدالة ومسوفة وملتونة وتارجا ولمطة وجزولة وبنو وارث . كانت تعيش حياة شظف وجهد في الشريط الصحراوي الأطلسي بعد أن طردها الزناتيون إلى أقصى الجنوب وأخرجوها من نواح مثل تافيلالت وأصبحت في صحرائها محصورة بين سور حوض السنغال وزناتة المغرب ، وكانت قبائل عفية كثيرة العدد ، تعيش على الرعي وقليل من الزراعة ، وكانت قد دخلت الإسلام ، ولكن إسلامها كان سطحيًا ، في حاجة إلى عمق وفهم ، وكان زعماء بعضها مثل جدالة ومسوفة وملتونة على جانب كبير من بُعد الهمة والتطلع إلى كسر هذا الحصار المضروب حولها .

وطول هذه الصحراء التي سكنتها قبائل صنهاجة الصحراء حوالي ألف كيلو متر ، تقطعها القوافل في شهر لتصل إلى حوض نهر السنغال ، وهو أول أنهار أفريقية المدارية الغربية شمالاً ، وجليد بالذكر أن لفظ سنغال صورة برتغالية محرفة لاسم صنهاجة ، فقد نطقها البرتغاليون لأول وصولهم إلى هذه السواحل سنهاجال Senhagal ثم سنجال Senegal .

وعند منابع نهر المولوية وحتى مجرى وادي درعة يمتد إقليم تافيلالت ، وهو إقليم واحات ونباح مياه كثيرة أكبرها سجلماسة ، وكانت سجلماسة من أكبر المحطات التجارية على أبواب الصحراء ، فإذا عبر التجار صحراء تنسر الواسعة التي أشرنا إليها ، وصلوا إلى محطة قوافل أخرى في الحوض الأعلى لنهر السنغال تسمى أودغشت ، وكانت كل من سجلماسة وأودغشت ، سوقاً تجارية عظيمة

يفد عليها التجار ، وتحط فيها القوافل وتجتمع فيها المتاجر والأموال .

في ذلك العصر — أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى — كانت الرياسة بين القبائل الصنهاجية التى أشرنا إليها لقبيلة جدالة ، وكان يتزعمها إبراهيم بن ترغوت ، وخلفه فى الرياسة ابنه عمر ثم حفيده يحيى . وتقول مراجعنا أن يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترغوت الجدالى هذا ، خرج للحج سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م وأنه لقى فى طريق عودته الفقيه أبا عمران الغفجومي الفاسى ، وكان من أكبر فقهاء المالكية فى القيروان فى عصره . واستمع يحيى بن عمر الجدالى إلى دروسه ، فتاقت نفسه إلى أن يرى فى بلاده فقيهاً مثله ، يلقى دروسه فى منازل قبيلته ويعلمهم الكتاب والسنة ويفقههم فى الدين ، فتحدث إلى أبى عمران الفاسى فى ذلك .

وكان يحيى بن عمر يفكر فى نفس الوقت فى أمر آخر إلى جانب اهتمامه بالعلم والفقہ ، وهو إنقاذ المجموعة الصنهاجية التى ينتسب إليها من استبداد الزناتيين وطغيانهم ، الذى امتد حتى تافيلالت ، ففى هذه الناحية ساد فرع من مغراوة الزناتيين ، يسمى بنى وانودين ، وكان رئيس هذا الفرع يسمى مسعود بن وانودين ، وكان على ثراء واسع وكان زعماء زناتيون آخرون يحكمون فى نواح أخرى ، فكان « خير بن خزر » ينشر سلطانه على مكناس ، ومعنصر بن ممد شيخ بنى يفرن يسود منطقة قلعة مهدى ، فى حين سيطر الفتوح بن دوناس على فاس ومنطقتها وهكذا .

وكانت القبائل الصنهاجية الكبرى تعاني كثيراً من تلك السيادة الزناتية ، وكان يسودها خوف على المصير ، لأن سيادة القبيلة على قبيلة أخرى لمدة طويلة ، تنتهى بهبوط القبيلة المستضعفة إلى مستوى الرعايا المحكومين الخاضعين ، وهذا نذير بزوال أمر القبيلة نتيجة لانكسار قوتها وطول العهد باستذلالها .

هذا الخوف ، كان بعض السبب الذى حفز يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالى إلى البحث عن شيخ يُعلم رجال قبيلته شرائع الإسلام ، ويجمع كلمتهم وينور أبصارهم ، لأن العلم نور للبصائر وتنبيه للأذهان وإخراج للناس من غفلة الجهالة إلى يقظة العلم . ولا شك فى أن يحيى بن عمر بن إبراهيم هذا ، لاحظ أن

كل من حركوا القبائل البربرية وهياؤها لإنشاء الدول ، كانوا جميعاً من المتحمسين من رجال الدين أو أصحاب الدعوات الدينية ، من أمثال أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافرى ، وأبى عبد الله الشيعى ، وإدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، حتى برغواطة تزعمها رجل من أهل العلم هو ميسرة الفقير ، وغمارة تزعمها صالح البرغواطى الذى زعم أنه « صالح المؤمنين » الذى ورد ذكره فى القرآن .

وكان يحيى بن عمر يرجو أيضاً أن يتنبه قومه من صنهاجة الصحراء ، إلى خطر الحصار الذى يضربه عليهم من الجنوب أهل السودان ، ويسجنونهم فى صحرائهم القاسية ، ويحولون بينهم وبين الانتشار فى الأراضى الخصيبة فى وديان أنهار السودان الغربى .

تحدث يحيى بن عمر إلى أبى عمران الفاسى فى إرسال أحد تلاميذه معه ، ولكن أحداً من أولئك التلاميذ لم يستجب للدعوة لبعده المسافة وخطورة المغامرة ، فكتب أبو عمران الفاسى له كتاباً إلى أحد تلاميذه من الفقهاء والعاملين فى سجلماسة واسمه وجاج بن زلو اللمطى ، إحدى قبائل صنهاجة الصحراء . وكان وجاج فقيهاً ذا مكانة كبيرة ، ولكنه لم يشأ القيام بهذه المهمة نظراً لعلمه بصعوبة قيادة الجدالين ، فندب لذلك تلميذاً شاباً من تلاميذه يسمى عبد الله ابن ياسين الجزولى .

### عبد الله بن ياسين :

نهض عبد الله بن ياسين لأداء مهمته ، وتوجه إلى منازل قبيلة جدالة وبدأ يعمل ، وتكشّف عن رجل نشيط متحمس واسع المطامح . فلم يقتصر على تعليم الجدالين شعائر الدين ، بل أراد أن يهذب أخلاقهم ويخرجهم عن حياة الخشونة والبدائية التى كانوا يعيشون فيها . ووضع لهم نظاماً للأداب العامة وأخذهم بالشدة . وكان الجداليون كثيرين وكانوا أهل فوضى وجفوة وقلّة نظام ، فلم يلبثوا أن ثاروا على عبد الله بن ياسين وأخرجوه من بلادهم ، لأنهم لم يتحملوا عنفه وشدته .

ولجأ عبد الله بن ياسين إلى شيخه وجاج بن زلو ، فطلب إلى يحيى بن عمر

عقابهم على ما فعلوه ، فقام بذلك وجعلهم يطلبون عودة عبد الله بن ياسين إليهم ، ولكنه رفض ، فنصحوه وجاج بأن يذهب إلى منازل قبيلة لمتونة ، وكانوا أميل إلى النظام والتماسك والعمل الجاد .

وإلى حين قريب لم نكن نعرف إلا شيئاً قليلاً عن عبد الله بن ياسين الجزولى ، ولكننا نعرف الآن أنه كان رجلاً واسع العلم بعيد الطموح شديد الذكاء ، ويحدثنا ابن عذارى أنه زار الأندلس ودرس فيه علوماً شتى ، وعندما عاد إلى المغرب قطعه من الشمال إلى الجنوب ، ومر في طريقه بريف تامسنا ، ورأى كيف أن جماعات الصنهاجيين هناك ترزح تحت وطأة الزناتيين وقُدّر جنود الزناتيين هناك بما لا يزيد على ثلاثة آلاف ، وأدرك أنه من الممكن التغلب عليهم وإقامة دولة لصنهاجة هناك . وبعد ذلك بسنوات ، عندما توجه إلى منازل لمتونة أحس أن فرصته قد حانت ليحقق ما كان يجول في ذهنه ، وهنا تجلى عبد الله بن ياسين عن شخصية رجل سياسى مؤهل للقيام بحركة سياسية كبيرة .

وعرف من أول الأمر كيف يكسب محبة يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالى ، وهو من جدالة كما يتجلى من نسبه ، ولكن جده إبراهيم كان قد صاهر اللمتونيين ودخل فيهم وانتسب إليهم ، وأصبح يعد نفسه من سلائل ترغوت بن ورتاسن ابن منصور بن مصالة بن أميت ، الذى عرب على « أمية بن وانمالى » ، الذى عرب على « وانمال بن لمتونة » التى تنطق أيضاً « تالميت » بن صنهاجة . وقد وصل هذا الرجل بذكائه ونشاطه إلى أن أصبح من زعماء لمتونة . ثم أنجب أولاداً كثيرين أشهرهم اثنان : عمر وتاشفين . فأما تاشفين فهو أبو يوسف الذى ستصير إليه زعامة المرابطين فيما بعد ، وأما عمر فقد أنجب أبا بكر ويحيى ، ويحيى هذا هو الذى تحدثنا عن رحلته إلى المشرق ومروره بالقيروان ولقائه مع أبى عمران الفاسى ثم مجيئه أخيراً بعبد الله بن ياسين .

كان عبد الله بن ياسين كما ذكرنا رجلاً نشيطاً ومغامراً سياسياً لا يهاب شيئاً ، وكان عظيم الإيمان بالإسلام . وكانت فيه شدة فى حمل الناس على إقامة شعائر الدين ، حتى كان يوقع العقوبات البدنية على من يتراخى فى أدائها ، وقد أفاد يحيى بن عمر من مواهب عبد الله بن ياسين ، لأن الشخصية المهيبة التى كان يتمتع بها هذا الأخير ، كانت ترغم الناس على الطاعة ليحيى ، وكان يحيى من

ناحيته لا يدخر وسعاً في تقديم العون لعبد الله بن ياسين .

وعندما تأكد عبد الله بن ياسين من أنه كَوْن حوله جماعة من المخلصين خرج بهم إلى جزيرة في المحيط ، قرب مصب وادي السنغال في الغالب ، لكي يفرغوا لأمر العباداة . وهناك أنشأ رباطاً لم يلبث أن اتسع وكثر الناس فيه ، فلما رأى عبد الله بن ياسين وفرة أعدادهم وحماسهم قال لهم : « اخرجوا فأنتم المرابطون ! » هذه رواية ابن عذارى الذي يقول بناء على ذلك أن هذا أصل تسمية المرابطين ، ولكن هناك من يقولون إن عبد الله بن ياسين أطلق عليهم هذا اللقب بعد انتصارهم في إحدى معاركهم .

وعندما اكتمل عدد هؤلاء الرجال الأشداء المخلصين ألفاً ، أمرهم عبد الله بن ياسين بالخروج من معتصمهم هذا في الجزيرة ، إلى البر والسير للجهاد ، وانضمت إليهم أعداد غفيرة من الجدالين واللمتونين وغيرهم . وكان ذلك في سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، وكانت القوة والقيادة في تلك الجماعة المرابطية الأولى للمتونة ، فبدأ اسم هذه القبيلة يظهر من بين القبائل الكثيرة التي تكونت منها مجموعة قبائل صنهاجة الصحراء .

هنا تظهر صفة أخرى من صفات عبد الله بن ياسين الكثيرة : صورة القائد العسكري الماهر الذي يحسن قيادة الجيوش وترتيب المعارك ، ويبدى في ذلك الميدان مهارة لا بأس بها ، وكانت الخطوة الأولى أمامه القضاء على سلطان المغراويين الزناتيين الذين كانوا يسيطرون على المغرب الأقصى .

عبر عبد الله بن ياسين على رأس رجاله الصحراء متجهاً إلى الشمال ، فلما وصل إلى إقليم تافيلالت الذي كان يسوده مسعود بن وانودين ورجاله من المغراويين ، فانتصر عليهم واستخلص سجلماسة من أيديهم ، وفي المعارك قتل مسعود بن وانودين ، واسترسل إلى الشمال ونزل سهل مراکش الذي يجري فيه نهر تانسيفت ، وكان ذلك سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .

بعد ذلك ارتد عبد الله بن ياسين إلى الجنوب ، فعبر الصحراء ، وهاجم أهل السودان الغربي في حوض السنغال ، وانتصر عليهم ، وفتح بذلك أمام قبائل صنهاجة البربرية أبواب أفريقية المدارية ، أى أن ذلك الرجل كسر الحصار الذي

كان مضروباً على صنهاجة الصحراء ، وفتح أمامها أبواب التوسع شمالاً وجنوباً ، فأخذت قبائل لتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وجزولة أو كزولة تتوسع جنوباً ، ومعنى ذلك أن الإسلام كسر النطاق الوقتى ووصل إلى شعوب أفريقية السوداء من هذه الناحية ، وذلك حادث تاريخى عظيم الأثر والمغزى .

وفى أثناء تلك الحروب قتل عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وبذلك اختفت تلك الشخصية الفريدة التى جمعت متناقضات كثيرة ، من إيمان وحماس دينى شديد وميل مفرط إلى النساء والاستمتاع ، وزهد وميل إلى التصوف ، إلى جانب النزوع إلى السلطان والجاه ، ولكنه كان على الجملة رجلاً فذاً واسع النظر بعيد المطامح ، دقيق الإيمان بالإسلام شديد العصبية لقومه . وكان يزعم أنه فقيه واسع العلم ، ولكن الحقيقة أن علمه بالفقه كان قليلاً . وقد أحصى المؤرخون عليه أخطاء فقهية كثيرة وأحكاماً صدرت عنه مخالفة للشرع ، ولكنهم جميعاً يثنون عليه بالذكاء والصلاح والإيمان والإخلاص والشجاعة . وخلاصة القول فيه أنه كان رجل دين وسياسة وشخصية فريدة ، أوتيت القدرة على قيادة الرجال وصنع التاريخ .

وقد قام عبد الله بن ياسين بعمله كله ، معترساً بجاه يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالى أمير لتونة ومن انضم إليها من قبائل المرابطين . وعندما مات يحيى بن عمر وخلفه فى الرياسة أخوه أبو بكر بن عمر ، حظى عبد الله بن ياسين بتأييده ، بل زادت مكانته عنده ، لأن عبد الله بن ياسين ، رغم اتساع جاهه لم يتخط حدوده قط ، واستمر يعطى الأمير حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة ، وإن جنح أحياناً إلى فرض هيئته الدينية عليه بذكاء .

وعندما قتل عبد الله بن ياسين كان سلطان أبى بكر بن عمر وقبيلته لتونة ، قد استقر وطاعت له كل قبائل لتونة الصحراء ، أى أن عبد الله بن ياسين أتم مهمته قبل موته ، ووحد صفوف الصنهاجيين تحت راية الجهاد فى سبيل الله ، وقاد خطواتهم الأولى فى الانتصار على الزناتيين فى الشمال وقبائل أفريقية المدارية السوداء فى الجنوب ، وأخرجها من الفوضى والتفرق إلى الانتظام والوحدة ، وأشعرها بقوتها وأعطاها غايات وأهدافاً دينية وسياسية واضحة ، ورسم لها الطريق لتحقيق هذه الغايات والأهداف .

## استمرار مسيرة الحركة المرابطية بقيادة أبي بكر بن عمر ، إنشاء مراكش :

وسار أبو بكر بن عمر بالحركة في طريقها ، وكان يستعين في عمله بالظاهرين من قرابته وأهل بيته ، وخاصة ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وكان إذ ذاك شاباً واسع الطموح .

وحوالى ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٦٩ م كان سلطان المرابطين قد استقر في حوض نهر تانسيفت الفسيح ، وظهرت الضرورة إلى إنشاء قاعدة سياسية وعسكرية للحركة في ذلك السهل الذي أصبح مركز الحركة كلها ، وكانت هناك قريتان بدائيتان ، على ضفة نهر صغير من نهيرات تانسيفت ، يجرى من الجنوب ويصب في النهر ، وكانت كل منهما تسمى أغمات ، والأغمات هو اللفظ البربري الذي يطلق على القرية البدائية التي تتألف من سور من الطين أو القصب وفروع الشجر ، وتتخذها القبيلة التي تنشئها معتصماً لنسائها وأطفالها ، وحصى لمواشيها بالليل وفي أوقات الخطر والحروب ومخزناً لسلحها وأزوادها ، وتسمى مثل هذه القرية البدائية في اللغات الأوروبية باسم كراال Kraal وتسمى في العربية باسم المجمع . وكان واحد من الأغماتيين ملكاً لقبيلة هيلانة أو ايت إيلان والثاني كان ملكاً لقبيلة أوريقة ، وكلا القبيلتين مصموديتان ، ولكنهما طاعتا لصنهاجة الصحراء ، مثلهما في ذلك مثل بقية القبائل المصمودية الضاربة هناك ، وقد انضمت هذه القبائل المصمودية إلى الحركة المرابطية ، واشتركت في جيوشها وأعمالها العسكرية . وقد رحب بذلك أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين من بعده ، وقد أفادت الحركة المرابطية من ذلك فائدة كبرى ، إذ أصبحت جيوشها تتألف من صنهاجيين ومصامدة وإن ظلت الرياسة في يد الصنهاجيين .

وتنافست القبيلتان كل منهما تريد أن تنشأ القاعدة في أغماتها ، وانتهى الأمر بأن تنشأ في الأغماتين معاً ، فكانت كتلتها في أغمات هيلانة ، وتحولت أغمات أوريقة إلى ضاحية للمدينة الجديدة ، وظل يطلق عليها اسم أغمات فقط ، وتقع إلى جنوبي مدينة مراكش .

وشرع أبو بكر بن عمر في بناء قاعدته سنة ٦٤١ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٦٩ م ،

وأطلق عليها اسم مراكش ، وهى بالبربرية مروكش ومعناه قصر الحجر ، لأن مبانى المدينة أقيمت بالحجر ، وما لبثت المبانى الرئيسية فى المدينة أن نمت ومضى الناس ينشئون البيوت والأسواق ، وهكذا نرى كيف أن هذا الرجل الذى ولد فى حوض نهر السنغال فى أفريقية المدارية ، عرف بفضل إيمانه بالإسلام ودخوله فى حضارته ، أن يضيف إلى تاريخ الحضارة الإسلامية مدينة من أجمل مدائن الإسلام وأوفرها بركة وأشهرها فى الدنيا ، وهى مدينة مراكش الزاهرة إلى اليوم .

وبينما كان أبو بكر بن عمر يرقب العمل فى بناء مدينته الجديدة بعد أن تزوج بزوجة جميلة تسمى زينب بنت إسحاق النفاوية يبلغه خبر أزعه ، خلاصته أن قبيلة جدالة وثبت بقبيلة لتونة فى الصحراء وأنزلت بها مذبحه ، فقرر العودة مسرعاً إلى منازل القبائل الصنهاجية فى الصحراء لإنجاد لتونة . وقبل رحيله جمع رؤساء قومه وطلب منهم أن يختاروا من بينهم رئيساً لهم يقوم بأمرهم فى غيابه ، فاختاروا ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وكان تاشفين والد يوسف أخاً ليحيى وأبى بكر ابنى عمر بن إبراهيم بن ترغوت .

وترك أبو بكر بن عمر ثلث القوة المرابطية مع يوسف بن تاشفين ، وأخذ الثلثين ومضى إلى منازل لتونة وجدالة وراء الصحراء سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م .

### يوسف بن تاشفين - انقسام القوة المرابطية إلى قسمين :

واحد يعمل فى المغرب ثم فى الأندلس ، وواحد يعمل فى أفريقية المدارية الغربية :

من ذلك الحين انقسمت حركة المرابطين قسمين : واحد منهما شمالى ، مركزه سهل مراكش ، وميدان نشاطه المغرب ثم الأندلس ويقوده يوسف بن تاشفين ، والثانى يعمل فى أفريقية المدارية الغربية ويقوده أبو بكر بن عمر . ونظراً لبعده الشقة بين القسمين ، لأن الصحراء تفصل بينهما ، فقد مضى كل من القسمين فى طريقه يعمل بنشاط ، فأما القسم الشمالى الذى يقوده يوسف بن تاشفين ، فهو الذى سنتتبع تاريخه الآن ، وأما القسم الثانى الجنوبى فقد تابع مسيرته

ونشاطه في فتح السبل لانتشار الإسلام في أفريقية المدارية ، وكان له دور عظيم في ذلك المجال .

## قيام دولة المرابطين في المغرب والأندلس :

٤٦٣ - ٥٠٠ هـ / ١٠٧١ - ١١٠٧ م :

يعتبر يوسف بن تاشفين من أعظم الرجال الذين أنجبهم المغرب الإسلامي وكان لهم أبعاد الأثر في توجيه تاريخه ، وقد قام بدور أساسي في إنشاء المغرب الأقصى وإعطائه حدوده الطبيعية التي ثبت عليها في التاريخ ، فهو الذي وحد نواحيه من الصحراء الكبرى إلى ساحل البحر المتوسط ، ومد حدوده من ساحل المحيط إلى شرقى نهر المولوية ، وضم إليه إقليم تلمسان والجزء الغربي من المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر ، ولم تصبح تلمسان وذلك الجزء الغربي من المغرب الأوسط جزءاً من المغرب الأقصى ، ولكن يوسف بن تاشفين بعمله هذا قام بالمحاولة الأولى لتوحيد أكبر جزء من بلاد المغرب تحت لواء واحد ، وهي محاولة سيتابعها الموحدون فيما بعد ، وستظل دائماً نقطة البداية في إنشاء ما يسمى بالمغرب العربي الكبير .

ثم إن يوسف بن تاشفين عبر إلى الأندلس كما سنرى ، وقام بدور كبير في إنقاذه من الضياع خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وكسب للإسلام في صراعه مع النصرانية على مصير الأندلس ، انتصارات كبرى جعلته شخصية مشهورة ، لها مكانها في تاريخ أوروبا والمغرب كله ، وهو لهذا كله يعتبر من أفضال الرجال في تاريخ الإسلام العام .

ويمتاز يوسف بن تاشفين بالخصائص الأساسية ، التي تميز بها كبار بناء دولة الإسلام على مر العصور ، وأول هذه الخصائص الإيمان العميق بالإسلام وفضله ورسالته ، وشعوره بأنه ينبغي أن يخدم هذا الدين وينصره ويجاهد في سبيله ويعمل على حماية عالمه من الأخطار ، وثانيها النظرة الواسعة إلى العالم الإسلامي على أنه عالم واحد مترابط ، فهذا الرجل الصحراوي لم يكد يقيم دولته حتى كتب إلى الخليفة العباسي يدخل في طاعته ويستظل برايته ، لأن ذلك كان رمزاً على وحدة العالم الإسلامي ، وثالثة هذه الخصائص هي الشعور الكامل

بضرورة نصرته الإسلام وحماية داره ما وسعه ذلك داخل بلاده وخارجها ،  
وسنرى كيف أن هذا الرجل لم يكد يسمع صريخ المسلمين في الأندلس حتى أسرع  
فلبى النداء ، ووضع إمكانياته كلها في القيام بهذه الرسالة الكبرى ، والرابعة هى  
إيمانه بالعروبة وعظيم قدرها وأهميتها . فقد كان يوسف بن تاشفين يعرف  
العربية دون أن يجيدها ، ولكنه اجتهد في إتقانها وشجع العلماء والفقهاء وحثهم  
على نشر العلوم العربية والإسلامية ، وقرب إليه كبار الكتاب والأدباء من  
أندلسيين ومغاربة وأدخلهم في خدمته ، وانتقل نفر من علماء الأندلس وأدبائها  
إلى المغرب للعمل في الدولة الجديدة .

ورث يوسف بن تاشفين عند توليه قيادة المرابطين في سنة  
٤٦٣هـ / ١٠٧١ م ، كل النتائج السياسية التى حققها قبله في المغرب عبد الله بن  
ياسين ويحيى بن عمر وأخوه أبو بكر ، فاختار لنفسه من الألقاب لقب أمير  
المسلمين ، وهو لقب مبتكر كان هو أول من اتخذه ، ولم نسمع كذلك بأن أى  
رئيس دولة إسلامية اتخذه ، وجعل من سجل ماسة قاعدة جنوبية لدولته ،  
فأصبحت مركز تجمع للصنهاجيين الصادرين من الصحراء . واهتم كذلك  
بمراكش وسهلهما ، فاتسع العمران فيها ، وأصبحت بالفعل عاصمة دولة كبيرة  
وكثر فيها المساجد والمنشآت ، وتتبع بقايا المغراويين الزناتيين ، الذين كانوا  
يسودون هذه المنطقة كلها من قبل ويجبون من أهلها المغارم ، وشيئاً فشيئاً مد  
سلطانه إلى الشمال واحتل فاس ووادى سبو ، وكان قد سيطر على فاس قبل ذلك  
زعيم زناتى يسمى معنصر بن المعز بن زيرى بن عطية صاحب مكناس ،  
فتغلب يوسف عليه واستخلص فاس ، ثم هاجم بقواته معاقل غمارة وبرغواطة ،  
في جبال الريف ، وقضى على زعماء مذاهب الزندقة والخروج عن الإسلام التى  
كانت تعشش هناك من زمن طويل ، وأخذ الفقهاء في نشر مذهب السنة والجماعة ،  
وقد اعتبر يوسف بن تاشفين حربه لبرغواطة وغمارة جهاداً دينياً .

وأصلح يوسف بن تاشفين مدينة فاس بعد دخوله إياها ، وجعلها مدينة  
واحدة بعد أن كانت مدينتين ، وأدار عليها سوراً حصيناً ، وأكثر من إنشاء  
المساجد فيها .

وأفلح يوسف بن تاشفين في التغلب على مقاومة كل القبائل التي كانت قد انفردت بنواحيها في « بسيط الهبط أو هبط غمارة » ، ثم استولى على ممر تازا وهو الممر المؤدى من المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط ، وعمر مدينة تازا في وسطه ، وابتنى بها مسجداً جميلاً ما زال باقياً إلى اليوم ، ومن مमार تازا ، مضى يوسف ابن تاشفين إلى إقليم تلمسان ، وبسط سلطانه على وادي ملوية الذي يصل إلى سجلماسة جنوباً ، وواصلت قواته السير شرقاً في منازل صنهاجة المغرب الأوسط ، ودخلت مدينة الجزائر التي كانت إذ ذاك تعرف بجزائر بنى مزغنا ، وابتنى فيها مسجداً جامعاً ما زال باقياً إلى اليوم . وكانت تلك المدينة هي أقصى ما وصل إليه سلطان المرابطين شرقاً ، إذ شغلته عن استكمال توحيد المغرب أحوال الأندلس على ما سنراه .

ثم تجرد يوسف بن تاشفين للاستيلاء على سبته وطنجة ، وكانت هذه الأخيرة عاصمة المغرب الشمالى ، وكانت البلدتان في ذلك الحين من توابع الأندلس ، وقد بدأت تبعيتهما للأندلس من أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان يحكم سبته رئيس بربرى يسمى « سقوط أو سكوت البرغواطى » ، ولأه إياها بنو حمود أصحاب مالقة الذين ادعوا خلافة الأندلس فترة قصيرة من الزمان ، في أعقاب انتشار أمر خلافة قرطبة وبداية عصر الطوائف سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م ، وقد تحول « سقوط » إلى أمير طوائف بدوره واتخذ من الألقاب السلطانية لقب المنصور المعان سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م .

وفي سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٩ م أرسل يوسف بن تاشفين قائده صالح بن على ، فتمكن من اقتحام سبته وإنهاء إمارة سقوط البرغواطى ، ثم انتزع طنجة من يد ضياء الدولة بن سقوط ، وبذلك يكون يوسف بن تاشفين قد وحد المغرب الأقصى من حدود الصحراء جنوبى وادى درعة إلى ساحل البحر المتوسط ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما استولى عليه يوسف بن تاشفين من بلاد المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر ومجرى نهر شلف ، تبيّننا ضخامة العمل السياسى الذى قام به هذا الرجل القدير ، الذى نهض بقومه ، من جماعة من المجاهدين المتحمسين ، إلى مستوى أصحاب الدول الكبرى في ذلك العصر .

وقد ساس يوسف هذا الملك العريض الذي لم يجتمع لغيره من أهل المغرب قبله ، بحكمة وسياسة دلت على ملكات إدارية وتنظيمية كبيرة ، وكان أساس تنظيمه كله العدل ، أى أنه كان يتوخى بسط لواء العدل فى كل ما طاع له من البلاد والقبائل ، فكان يختار للولايات والإمارات خيرة رجاله ، من أهل العدالة والدين من رجال القبائل الصنهاجية ، ويضم إلى كل وال فقيهاً أو أكثر لكى تكون أحكام رجاله كلها متمشية مع الشريعة الإسلامية . ورفع عن أهل المدن والقبائل المغارم الثقيلة التى كان الزناتيون يجبونها ، وكان يوصى رجاله بالعدل والرفق بالناس . وكانت له شخصية مهيبة فرضت نفسها على رجال القبائل الصنهاجية ، وأهمها فى أيامه لتونة وجدالة ومسوفة وتليها فى الأهمية والقوة لمطة وجزولة وبنو وارث وتارجا . وقد سرت روح الجهاد فى سبيل الدين فى نفوس أهل هذه القبائل كلها ، فغادر معظم الرجال القادرين على الحرب منازلهم فى الصحراء وما يليها جنوباً ، وانضموا إلى جيوش المرابطين ، إذ أن الجهاد كان عصب هذه الحركة والقوة التى دفعتها إلى الأمام ، وكان يوسف بن تاشفين رائداً فى ذلك المضمار .

### المرابطون يعبرون إلى الأندلس لنصرة الإسلام :

فى حدود سنة ٤٧٥هـ / ١٠٨٢ م وصل يوسف بن تاشفين إلى ذروة قوته فى المغرب ، أى أنه تمكن من بناء هذه الدولة الكبيرة خلال اثنتى عشرة سنة فحسب من العمل الدؤوب ، وأقامها على أكتاف رجال من صميم العترة المغربية ، وقيام هذه الدولة يمثل لنا ذروة التطور السياسى فى المغرب منذ الفتح الإسلامى ، وقد عرضنا من قبل لكل المحاولات والدول السابقة ، ورأينا اختلاف حظوظها من التوفيق فى بناء الدول . وهذه التجربة المرابطية أقواها وأنضجها جميعاً إلى ذلك الحين ، مما يدل على أن الإسلام عندما دخل أفريقيا والمغرب ، أيقظ أهلها ووضعهم فى طريق التقدم السياسى والاجتماعى ، حتى وصل بهم إلى هذا المستوى الذى وصل إليه يوسف بن تاشفين بالحركة المرابطية .

وقد اشتهر ذكر يوسف بن تاشفين إذ ذاك فى العالم الإسلامى كله ، بأنه سلطان مسلم عادل ومجاهد مخلص فى سبيل الله ، ولا غرابة والحالة هذه أن نسمع بأن الإمام أبا حامد الغزالي كان يثنى على يوسف بن تاشفين .

وفي ذلك الحين كان أمر المسلمين في الأندلس قد وصل إلى درجة من الاضمحلال جعلت مصير الإسلام في شبه الجزيرة في الميزان ، فقد تقاسمت بلاد الأندلس جماعة من الوثابيين بالسلطان المستبدين بنواحيهم ، كانوا في الأصل عمال دولة الخلافة القرطبية أو قضاة نواحيهم ، فقدمهم الناس للولاية حتى تنجلي غمرة الحرب الأهلية التي دارت رحاها حول الخلافة بعد سقوط دولة العامريين<sup>(١)</sup> سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م . ولكن الغمرة لم تنجل ، بل ازدادت الأحوال سوءاً لأن أولئك المستبدين بالنواحي ، حولوا أنفسهم إلى سلاطين صغار لكل منهم بلاط وحشم وحاشية في ناحيته ، وبعض هذه النواحي كان ولايات واسعة مثل طليطلة أو أشبيلية ، وبعضها الآخر كان لا يزيد على مدينة وحوزها مثل دانية Denia أو البونت أو سهلة بنى رزين .

وانتهز ملوك إسبانيا النصرانية هذه الفرصة ، للتوسع على حساب أولئك الأمراء الضعاف الذين كان أقواهم يعتمد على قوة من الجند المرتزق ، لا تزيد على بضع مئات من الفرسان ، وقد كانت بعض ممالك النصرانية أصغر وأفقر من جاراتها من إمارات الطوائف مثل أرجون التي كانت مملكة صغيرة في أسفل جبال البرت أي البرانس ، تجاورها إمارة إسلامية واسعة هي الثغر الأعلى الأندلسي وقاعدته سرقسطة ، وكانت تحكمها أسرة بنى هود التجيبين ، ولكن ملك أرجون الصغير كان يستطيع تجريد جيش من ألف فارس وأكثر ، يجمعهم إلى لوائه الإيمان بأنفسهم والطمع في أراضي المسلمين الواسعة الغنية . ومن هنا فلا غرابة في أن نجد أمراء سرقسطة يدفعون الإتاوة لأمير نصراني أصغر منهم ولاية وثروة ، ولكن الصراع السياسي خلال التاريخ كله ، يعتمد أولاً وأخيراً على إيمان الرجال بحقوقهم وعقائدهم واستعدادهم للبذل والتضحية . وقد كان المسلمون من أهل سرقسطة وطلطلة مستعدين للبذل والتضحية في سبيل بلادهم ودينهم ، ولكن أمراءهم كانوا بعيدين جداً عن مثل هذا التفكير ، فضيئوا

---

(١) العامريون يراد بهم محمد بن أبي عامر الملقب بالحاجب المنصور ، الذي استبد بأمر الخلافة الأموية ، وخلفه ابنه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول ( انظر القسم الخاص بالأندلس من هذا الكتاب ) .

رعاياهم وباعوا أرض الإسلام في سوق البخس حفاظاً على عروش وهمية وإرضاء لغرور أنانى خسيس .

وكانت أضعف هذه الإمارات الإسلامية الأندلسية إمارة بنى ذى النون أصحاب طليطلة ، وكانت طليطلة ولاية واسعة تمتد من حوض نهر تاجه إلى مشارف حوض الوادى الكبير ، بل كانت هى وحدها تمثل ربع الأندلس مساحة ، وكان يحكمها أمير من بنى ذى النون يلقب نفسه بالمأمون ، وكان غاية في الغباء وقصر النظر وضعف الإيمان ، فكان يبتنى القصور ويقوم الحفلات الكبرى وليس لديه من القوة العسكرية ما يدفع به عدواً . وقد اشترى سلامته بأتاوة كان يدفعها لملك قشتالة وليون المجاور له من الشمال والغرب .

وكانت قشتالة إذ ذاك كونتية أى إمارة صغيرة تابعة لمملكة ليون ، وكان يحكم ليون ملك يسمى سانشو الثانى ، اختلف مع أخيه الفونسو فطرده خارج بلاده ، فلجأ إلى بلاط المأمون بن ذى النون ، ورحب به هذا وخلطه بنفسه وأطلعته على أسراره ، فعلم هذا الأمير المنفى أنه لو اقتدر على ألف فارس ، لاستولى بهم على طليطلة وأزال ملك بنى ذى النون .

وهذا هو الذى حدث ، فقد شاءت الظروف أن يقتل الملك سانشو الثانى ويجتمع فرسان مملكة ليون وكونتية قشتالة لاختيار خلف له ، واستقر رأيهم على استدعاء الفونسو من منفاه ، وتوجوه ملكاً على قشتالة وليون بزعامة فارس جرىء يسمى ردرىجو دياث دى بيبيار الملقب « بالسيد القمبيطور » .

وقد اكتسب الفارس لقب السيد ممن كان يعمل معه من مقاتلة المسلمين ، وكان الكثيرون منهم قد تحولوا إلى أهل حرابة أى قطاع طرق وفرسان مرتزقين يخدمون من يدفع لهم أعلى أجر ، وكان هذا السيد القمبيطور فارساً مرتزقاً جريئاً ماهراً فى شئون الحرب ، وكان حامل لواء ملك قشتالة وليون .

وبعد استقرار الفونسو السادس على عرش بلاده ، بدأ يرمى ببصره إلى طليطلة ، وكان المأمون بن ذى النون قد شاخ وركبته الأمراض ، ولم يكن له من وريث إلا حفيد قليل الذكاء يسمى يحيى ، فحسب المأمون أن الفونسو السادس يرعى زمام طليطلة بما آواه من قبل عندما كان طريداً ، ولكنه عندما مات أوصى

رجال دولته بحفيده الذي أصبح أميراً وتلقب بالقادر ، وما هو إلا قليل حتى دخلت قوات قشتالة وليون يقودها الفونسو السادس أراضي طليطلة واستولت عليها دون أن يرتفع للدفاع عنها سيف واحد ، لأن القادر بن ذى النون حسب أن الملك النصراني إنما أتى لعونه على خصومه في بلاده ، فإذا به يرى أنه أتى ليستولى منه على ولايته طليطلة بكل مدنها وحصونها وحدودها ، ويعوضه عنها بولاية بلنسية وكانت تابعة لطليطلة ، وهكذا استولى الفونسو السادس على ربع الأندلس دون أن يستعمل سلاحاً ، وخرج التعيس القادر من بلده ليتولى بلنسية في حماية قلة من فرسان قشتالة على رأسهم فارس يسمى ( الفار هانيث ) الذي تكتبه مراجعنا ألب هانس Alvar Hanez وكان ذلك سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م .

هنا أفاق ملوك الطوائف من غفلتهم ، وأدركوا أن مصيرهم كلهم إلى بوار ، إذا هم ساروا في طريق الضلال الذين كانوا سائرين فيه خاصة وقد تحولت مملكة قشتالة وليون بعد استيلائها على طليطلة ، إلى أكبر دولة في شبه الجزيرة ، فقد أصبح حجمها ثلاث مرات حجمها الأول ، وانحدرت قواتها إلى الجنوب واستولت على معظم بلاد حوض الواديانة ، ودخلت قواتها قورية والأشبونة وشنترين ، وكان السيد القمبيطور قد انفرد ببلنسية وحاصرها حصاراً مريباً حتى استولى عليها ، وتحركت مملكة أرغون وأخذت تتقدم في أراضي إمارة سرقسطة أى الثغر الأندلسي الأعلى ، وحالفت كونتية قطلونية وعاصمتها برشلونة واستولت على طركونة ثم طولوشة وأخذ الفونسو السادس يتأهب للاستيلاء على بطليوس وأشبيلية ، ولم يعد يقنع بالإتاوات التي يؤديها إليه أمراؤها<sup>(١)</sup> .

هذه هي الظروف التي اضطرت ملوك الطوائف إلى طلب النجدة من يوسف ابن تاشفين ، والحق أنهم كانوا مترددين في ذلك حتى اضطرتهم رعاياهم إلى ذلك ، فتوجه وفد من فقهاء الأندلس ولقى يوسف بن تاشفين ، وأطلععه على خطورة الوضع وشرح أحوال ملوك الطوائف ، وطلب إلى الأمير المرابطى أن يعجل بنجدة الأندلس . وأدرك الرجل خطورة الموقف ، ولبى داعى الجهاد لأنه بطبعه وطبيعة حركته ، مجاهد في سبيل الإسلام .

(١) عن هذه الأحداث بشيء من التفصيل - انظر القسم الخاص بالأندلس من هذا الكتاب .

وفي عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس بجيش ضخم بعد أن نزل له المعتمد بن عباد عن مدينة الجزيرة الخضراء ليؤمن لنفسه وقواته خطوط الاتصال مع المغرب . وسارع المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية للقاءه ، وتم الاتفاق على أن يتجه الجيش المرابطى ومن يرافقه من مقاتلة الأندلس، نحو بطليوس في غرب الأندلس ، لأن الفونسو السادس بعد أن استولى على قورية والأشبونة وشنترين ، كان يستعد للاستيلاء على إمارة بطليوس ، وكانت تشمل جانباً ضخماً من غرب الأندلس . وأقبل الفونسو السادس بحشوده ، وكان اللقاء في سهل متسع جنوب غربى مدينة بطليوس يسمى الزلاقة بالعربية ، وفي الإسبانية Sacrajas ، وانجلى اليوم بعد قتال بالغ العنف ، بنصر مؤزر ليوسف ابن تاشفين ، فقد أبيدت صفوف قشتالة وليون ، وفر الفونسو السادس في لمة قليلة من فرسانه ، وهو لا يصدق بالنجاة .

هذا الانتصار كان له أثر حاسم في سير الحوادث في الأندلس ، فقد تحطمت القوة الضاربة لمملكة قشتالة وليون وتوقف تقدمها نحو الجنوب ، وارتد رجالها شمالاً للدفاع عن طليطلة ، واستعاد المسلمون الأشبونة وشنترين وتوقف تقدم كونتية البرتغال في غرب الأندلس ، وغريب من الأمر أن المتوكل بن الألفس ، صاحب بطليوس ، أبدى بعد هذا النصر خوفاً وقلقاً من المرابطين ومال إلى الخيانة والتفاهم مع العدو . وقد بلغت أخباره هذه يوسف بن تاشفين . ولاحظ يوسف كذلك أن المعتمد بن عباد تراخى من ناحيته وخاف على إمارته ، أما الأمير أبو عبد الله الزيرى صاحب غرناطة ومالقة ( وهو صنهاجى الأصل مثل يوسف ابن تاشفين ) فقد بدا وكأن النصر لم يكن على هواه .

في وسط هذه الظروف وجد يوسف بن تاشفين أن يعجل بالعودة إلى المغرب لينظر في أمور دولته الواسعة ، ولهذا لم يستطع الإفادة من ذلك النصر العظيم الذى حازه ، ولو أن أمراء الأندلس وقفوا إلى جواره وأمدوه بكل قواتهم لتقدم إلى طليطلة واستولى عليها ، وأعاد ميزان الأمور في الأندلس إلى نصابه ، لأن الانتصارات العسكرية مهما عظمت فإنها تظل غير ذات قيمة عملية كبيرة إذا لم تستغل سياسياً وعسكرياً ، ولو أن صلاح الدين الأيوبي لم يسارع باستعادة

القدس بعد نصر حطين لما كان لهذا النصر القيمة التاريخية الكبيرة التي يحتلها في صحائف التاريخ .

عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب فتنفست مملكة قشتالة وليون الصعداء وأفرخ روعها ، وبدأ أمراء الطوائف يتصل بعضهم ببعض معبرين عن مخاوفهم على بلادهم من ذلك الأخ الذي خَفَّ لنجدتهم . أما يوسف فإنه كان يشعر أنه لا بد أن يعود إلى الأندلس ليستكمل النصر ، ولكنه ما كان يستطيع أن يفعل شيئاً ذا قيمة كبيرة إلا إذا كان له وضع قانوني في الأندلس ، فهو إلى الآن مجرد ضيف لا يسيطر إلا على رأس معبر هو مدينة الجزيرة الخضراء وهو لا يستطيع أن يطلب إلى أمير أو أهل بلدة أن يوافوه بالمؤن والأزواد أو تقديم أى عون ، لأن لكل ناحية أميرها وصاحب السلطة العليا فيها .

وبعد أن مهد يوسف لنفسه في الأندلس تمهيداً معقولاً استجاب لصريخ أهل الأندلس ، وعبر للمرة الثانية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٨ م إلى الأندلس ، ووجهته هذه المرة شرق الأندلس ، لأن جماعة من فرسان قشتالة احتلت حصناً هاماً بين مرسية وبلنسية ، يسمى حصن لايبط Aledo وأخذوا يقطعون الطريق على المسلمين مما أشاع الفوضى في الشرق كله ، هذا إلى أن السيد القمبيطور كان يعيث في بلنسية وشرق الأندلس كله فساداً ، وكان يرأس فرسان ذلك الحصن الفارس القشتالي المشهور البر هانس .

وسار يوسف بقواته نحو لايبط ، وانتظر أن توافيه حشود الأندلسيين ، ولكن أحداً منهم لم يلب داعى الجهاد ، بل منعوا عنه الأزواد والمؤن ووقفوا منه ومن قواته موقف العداء ، وكانت نية يوسف أن يستولى على لايبط ثم يخرج السيد القمبيطور من بلنسية ومن هناك يتجه نحو طليطلة ، ولكن هذا الموقف من أمراء الطوائف جعله يغير رأيه ، إذ نفذت مؤنه وطال حصار الحصن دون جدوى ، فانصرف عنه على رغمه عائداً إلى المغرب وقد قرر العودة إلى الأندلس بعد أن يحكم الأمر ويتم عدته . ومع ذلك فإن يوسف لم يكـد يرفع الحصار ويرتد جنوباً حتى سارع البر هانس وفرسانه فأخلوا حصن لايبط خوفاً على أنفسهم فاستولى عليه صاحب مرسية ، وأوجس السيد القمبيطور خوفاً من المرابطين .

وفي سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبره الثالث ، الذي قام فيه بعزل ملوك الطوائف من إماراتهم فيما عدا أمير سرقسطة ، الذي دخل في طاعته ، وتركه يوسف بن تاشفين ليسد الثغر الأعلى الأندلسي المهدد بالخطر ، وفي هذه المناسبة عزل يوسف بن تاشفين ، المعتمد بن عباد أمير أشبيلية وأخذه معه إلى المغرب حيث قضى بقية عمره في أغمات جنوبي مراكش . وفي هذا المنفى أو الأسر كما يسميه المعتمد ، قال هذا الأمير الشاعر أجمل أشعاره وأصدقها في رثاء نفسه والتحسر على ما ضيع من فرص للعمل والجهاد .

وبهذا اتسعت دولة المرابطين اتساعاً جعل منها دولة كبرى تمتد في قارتين ، حدودها الشمالية فيما بين نهر تاجة والواديانة في إسبانيا والبرتغال في أوروبا وحدودها الجنوبية في أفريقية المدارية ، وفي كلتا الجهتين كان على المرابطين أن يواصلوا جهاداً دينياً ، يتطلب سيلاً لا ينقطع من المقاتلين وأموالاً لا تحصى . ولو أن رؤساء الأندلس وقفوا إلى جانب يوسف بن تاشفين وأيدوه وشاركوه في الجهاد لثبتت جبهة الإسلام هناك بصورة يمكن الدفاع عنها . ولكن بينما كان شعب الأندلس يتعطش للجهاد ويبدى كامل الاستعداد لمواجهة العدو ، كان رؤساء بلاد الأندلس ينصرفون إلى إقامة الصعوبات والعقبات في وجه إخوانهم الذين أقبلوا لإنقاذهم . وبدلاً من السير إلى جانبهم نجد الكثيرين من أهل الفكر في الأندلس يسخرون من المرابطين ويترفعون عليهم لأنهم كانوا قوماً على البداوة لم تفسدهم الأناية التي أضعفت حكام الأندلس وجعلتهم عاجزين عن الدفاع عن بلادهم .

وقد فرض الأندلس على المرابطين مسئولية ثقيلة ، فقد كان عليهم أن يواصلوا الحرب والجهاد وحدهم على جبهة عريضة شمالي خط الواديانة ، لأن الأندلس كانت دار جهاد ، وقد دخلها المرابطون مجاهدين ، وكان عليهم أن يستمروا في هذا الصراع المجيد ، ولم يجد المرابطون من الأندلس عوناً ، فكان عليهم أن يقوموا بالعمل وحدهم ، فإذا أضفنا إلى ذلك مسئوليات المرابطين في المغرب ، تبيننا أنهم حملوا في الواقع من المسئوليات ما كانت قواهم عاجزة عن النهوض به على طول المدى .

كسب المرابطون في الأندلس مواقع كبرى أولها الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ /

١٠٨٦ م ، وفي سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م استرد بلنسية القائد المرابطى محمد بن مزدى ، وكانت قد وقعت في يد الفارس القشتالى رودريجو دى بيبار الملقب بالسيد القمبيطور El Cid Campeador واستعاد المرابطون بعد ذلك عدداً من المدن الأندلسية في شرق الأندلس مثل مريبطر Murviedro والمنارة Almenara والسهلة Santa Maria de Albarracin وغيرها . وانتصرت قواتهم على قوات الفونسو السادس في عدد آخر من المعارك عند قنسوجرة Consuegra وقونقة Cuenca وملجون Munzon في سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م . وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م انتصر القائد المرابطى تميم بن يوسف على قوات قشتالة في معركة دامية عند أقليش Uclis شرقى طليطلة وقتل في هذه المعركة عدد كبير من قواد النصارى منهم سبعة من الأكناد ، بل قتل الأمير شانجه بن الفونسو السادس . ولهذا سميت المعركة « بمعركة الأكناد السبعة La Batalla de los Siete Condes » .

وتوفى يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م وخلفه ابنه على ، وبوفاة يوسف بن تاشفين اختفت شخصية من أجل شخصيات تاريخ الإسلام ، وقد سبق أن تحدثنا عن خلاله ومآثره وأعماله وقدرناه قدره ، ومن حسن الحظ أن ابنه علياً كان على شاكلته من ناحية صدق الإيمان والإخلاص لامة الإسلام . وكان أميراً حسن التكوين والتدريب . ولد في المغرب وتربى في الأندلس وشب أميراً عالماً مجاهداً يتميز بالعدالة وصلابة الخلق ويتمتع بثقافة عالية ، وسار في آثار أبيه في كل ميادين العمل ، وكان أهم ما شغل باله واستنفذ جهده ، الجهاد في الأندلس .

وبينما كان علي بن يوسف يواصل جهوده في المغرب والأندلس بدأ محمد بن تومرت المعروف بمهدى الموحدين دعايته ضد المرابطين واجتهد في تشويه سمعتهم واتهامهم بالمروق عن الدين والتجسيم وما إلى ذلك ، وقد نجحت دعايته لأنه توجه بها إلى فريق آخر من البربر البرانس كانوا يتشوقون بدورهم إلى إنشاء

دولة لهم تضاهى ما وصلت إليه قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة وغيرها من المجموعة الصنهاجية الصحراوية المرابطية . ولهذ فإن نجاح محمد بن تومرت لا يمكن أن يعزى إلى صدقه في الاتهامات التى وجهها إلى المرابطين ، بل إلى ذكائه فى معرفة اللغة التى يخاطب بها المصامدة ويجذبهم بها إلى صفه . وستحدث عن ذلك فى كلامنا عن الموحدين .

ويهمنا الآن أن نقول إن على بن يوسف خلف هذا الملك العريض والحافل بالمشاكل والمصاعب لابنه تاشفين ، وكان شاباً حسن الاستعداد ، ولكن الظروف التى تولى فيها كانت عسيرة تحتاج إلى رجل ذى تجربة أوسع ، ثم إن محمد بن تومرت استعمل أساليب غاية فى العنف والقسوة والبعد عن المألوف فى محاربة المرابطين معتمداً على قبائل أكبر وأضخم وأقوى من قبائلهم .

## تاشفين بن على ٥٣٧ - ٥٣٩هـ / ١١٤٢ - ١١٤٤ م ونهاية دولة المرابطين فى المغرب والأندلس :

وقد اضطر المرابطون إلى توجيه كل قواهم إلى صراع الموحدين فى المغرب دفاعاً عن كياناتهم ، وبهذا حرم الأندلس من جهودهم فيه . ومن أغرب ما حدث فى تاريخ الإسلام قيام دولتين كبيرتين من دول الجهاد والذود عن دار الإسلام فى نفس الموضع ونفس العصر ، فقد كان القيام الحقيقى لدولة المرابطين سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦١م عند استقلال يوسف بن تاشفين بالقسم الشمالى من دولة المرابطين ، وقامت دولة الموحدين سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م بولاية عبد المؤمن بن على ، فتلاقت الدولتان فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وإحدهما فى أوج قوتها والثانية فى عنفوان شبابها ، فكان لقاؤهما بلاء على المسلمين ، ولو تأخر ظهور دولة الموحدين نصف قرن من الزمان

لتعاقبتا على الجهاد وكان تعاقبهما نعمة على الإسلام وأهله ، ولكن هكذا شاءت المقادير وخسر المسلمون في هذا التعاصر شيئاً كثيراً ، ولكن النتيجة على الجملة طيبة في النهاية ، فقد خطا المغرب على أيدي الموحدين بعد المرابطين خطوات واسعة نحو الوعي بشخصيته ومسئوليته نحو عقيدته الإسلامية، وظهرت للمرة الأولى فكرة توحيد المغرب في دولة واحدة على يد المرابطين أولاً ثم الموحدين من بعدهم . وهذه في ذاتها معالم واضحة في التاريخ القومي المغربي العام .

ونظراً لتداخل تاريخي المرابطين والموحدين خلال الحقبة الأخيرة من تاريخ الأولين والأولى من تاريخ الآخرين ، فسنتقف هنا بتاريخ المرابطين لنستتمه في أطوار ما سنرى من تاريخ الموحدين .

\*\*\*